

قراءة في نظم المديح النبوي على العصر الناصري الأندلسي
قصائد الشوق والحنين انتقاء

**A Reading of the Structure of Prophetic Praise
Poetry in the Nasrid Period of Andalusia**

أ.د. عزوز زرقان

جامعة محمد البشير الإبراهيمي - برج بوعرييج (الجزائر)
مخبر الدراسات اللغوية والأدبية والمعاصرة

azzouz.zorgane@univ-bba.dz

المعلومات المقال	الملخص (لا يتجاوز 10 أسطر)
تاريخ الإرسال: 2025/05/26 تاريخ القبول: 2025/06/17	ينحو هذا المقال إلى الكشف عن غرض شعري كتب له الشيوع على أيام بني النصر بالأندلس، ويتعلق الأمر بالمديح النبوي، حيث كان سقوط المدن حينها من أهم بواعثه وأسبابه، فالتناس لهول ما شهده رجوعوا وأنابوا إلى الله سبحانه تضرعا وخيفة لعله يغير من حالهم، فظهرت بذلك أشعار تمجيد الرسول - عليه الصلاة والسلام- وهي تصور الشوق والحنين لزيارته.
الكلمات المفتاحية: النظم، المديح، العصر الناصرى.	
Article info	Abstract : (not more than 10 Lines)
Received Accepted	This article aims to uncover a poetic purpose that became widespread during the era of the Banu Nasr in al-Andalus, specifically focusing on prophetic praise poetry. The fall of cities at that time was among its most significant motivations and causes. Due to the horrors people witnessed, they turned back and repented to God Almighty in supplication and fear, hoping He might change their condition. As a result, poems glorifying the Prophet—peace be upon him—emerged, expressing longing and yearning to visit him.
Keyword Structure, praise, Nasrid period.	

المقدمة:

لقد كانت النتيجة الحتمية للوضع السائد في الأندلس وتحديدًا بعد عصر الطوائف وما جرّه على الأمة العربية الإسلامية من ويلات ونكبات، أن كثر تحرش النصارى بالكثير من المدن الأندلسية، الأمر الذي أدى إلى سقوط العديد منها في أيديهم وصارت الأندلس تؤكل قطعة قطعة وينهش جسمها وهي تفقد بين الفينة والأخرى مدينة أو قلعة أو حصنًا ومساحتها تتقلص شيئًا فشيئًا، وصارت الجزيرة الخضراء التي تغنى بها الشعراء ومن جمالها استلهموا الروح الشاعرية الفائقة في طريقها إلى الضياع وبدأت تلوح في الأفق بوادر الأفول بطرد العرب والمسلمين منها وإرجاعهم إلى موطن الأجداد الأول.

فكان أن سادت حالة من اليأس والقنوط والأسى في نفوسهم ولم يجدوا ملجأ أو مهربًا سوى البحث عن شيء بديل يمسحون به هذا الواقع الذي لم يكن في الحسبان يومًا واقع أفرزته السياسات العرجاء المنحرفة لحكام وأمرأ ذلك الوقت واقع استبدت فيه الأنانيات والمصالح الضيقة والشخصية للحكام وساد فيه الجور والظلم والتبس فيه الحق بالباطل فما كان للشعراء في ذلك الوقت بديل وهل سيكون البديل هو القوة العسكرية التي لم تعد تجدي نفعًا ولا طائلاً أمام قوة الأعداء؟ إن البديل بديل ديني إنه الحنين إلى الديار المقدسة والربوع الطاهرة الزكية مهبط الوحي وزمن صفاء العقيدة إنه الشوق إلى العصر الذهبي للأمة وكأن التحليق في تلك الربوع يعيد إلى أذهانهم تلك الأمجاد ولو كان ذلك حلماً وكأنهم بشوقهم وحنينهم لزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم وإعجابهم بشخصيته المتميزة المتفردة ثم الاحتفال بمولده الكريم بعد ذلك كأنهم يتوسلون إليه لحدوث معجزة الانتصار على عدوهم وهم في ذات الوقت يبكون على شباب الدولة الذي تدب فيه الشيخوخة ديبب النار في الهشيم.

إذاً فالوجهة أضحت دينية والتحليق لمراجع الوحي أضحي السبيل الأمثل لاستجلاب مستحيل قد يحصل ويخلص الأندلس من هذه المأساة. فالشعراء اقتحموا عالم قصيدة المديح النبوي ضمن جملة أشعارهم جامعين فيها بين الزهد والتصوف. هذا الاقتحام لهذا

النوع من الشعر وجدناه قد استأثر به جل شعرهم وجعلوا منه موضوعا شعريا مميزا بما أفاضوا وأصبغوا عليه من الأساليب والصيغ والتراكيب الموحية والموضوعات المتنوعة فكان بحق شعرا مميزا جعلهم يتفردون به دون غيرهم¹.

وقد وجدنا أن هذا الفن من المديح النبوي قد ظهر في الأندلس منذ القرن الهجري الثالث حيث أورد المقرئ قصيدة لعبد الملك بن حبيب السلمي² يمدح فيها الرسول عليه السلام حين زار قبره وروضته الشريفة وتمتع بمشاهدة طيبة التي ضمت قبره الشريف وشهدت نور دعوته المقدسة والتي يقول فيها:

لله در عصابة صاحبها * نحو المدينة تقطع الفلوات.
ومهامه قد جبتها ومفاوز * ما زلت أذكرها بطول حياتي.
حتى أتينا القبر قبر محمد * خص الإله محمدا بصلات.
خير البرية والنبي المصطفى * هادي الوري لطرائق لنجاة.
لما وقفت بقبره لسلامه * جادت دموعي واكف العبرات.
ورأيت حجرته وموضعه الذي * قد كان يدعو فيه في الخلوات.
مع روضة قد قال فيها إنها * مشتقة من روضة الجنات.
وبمنزل الأنصار وسط قبائهم * بين الهداية كاشف الغمرات.
وبطيبة طابوا ونالوا رحمة * مغنى الكتاب ومحكم الآيات.
وبقبر حمزة والصحابة حوله * فاضت دموع العين منهمرات.
سقى لتلك معاهدا شاهدها * وشهدتها بالخطو واللحظات.
لا زلت زوارا لقبر نبينا * ومدينة زهراء بالبركات.
صلى الإله على النبي المصطفى * هادي البرية كاشف الكربات.
وعلى ضجيعيه السلام مرددا * ما لاح نور الحق في الظلمات.

¹ التعريف بقصيدة المديح النبوي الشريف، ص 4.

² المقرئ: نفح الطيب، ج 2، ص 115.

لقد هانت كل المصاعب لعظم شأن المزار فالرحلة البرية التي جابت الصحراء المشمسة والمفاوز الصعبة القاسية قد حفت بجلال من الحب المقدس والإعجاب اللامتناهي حتى صارت من الذكريات التي لا تنسى. فكيف بالذي وقف على قبر خير من وطئ الثرى ووقف بروضته الشريفة الطاهرة متأملا حجرتة معتبرا متعظا فكيف لا تهمر عيناه بالدمع المدرار فهي طيبة الطيبة التي ضم ثراها الصفوة المرموقة من البشر وهي التي شهدت الأحداث والوقائع ونزول الوحي؟ فهناك خشية وخشوع يدلان على شدة شوق الشاعر وحنينه إلى تلك الأيام المزهرة الغراء أيام العزة التي تمنى عودتها من جديد حتى يرفع الغبن. ومن ثم نراه يختم قصيدته بالسقيا لتلك المعاهد التي اكتحلت بها عيناه مصليا على النبي الكريم ومسلما عليه سلاما كاملا متصلا إلى يوم الدين.

هذا وقد ازدهرت مسيرة شعر المديح النبوي في عصر الموحدين ولاح في أفق سماء ذلك الزمن شعراء كثيرون منهم ابن الجنان (ت 646 هـ) وابن الأبار القضاعي (ت 658 هـ) وأبو المطرف بن عميرة (ت 658 هـ) وأبو الحسن الرعيني (ت 666 هـ) وحازم القرطاجني (ت 684 هـ) وغيرهم.

وواصل المديح النبوي مسيرته مزدهرا في غرناطة دولة بني نصر في القرن الثامن وبعده حيث ظهرت القصيدة المولدية وكان الاحتفاء بالمولد من أجل المظاهر حينها على عهد الغني بالله (ت 793 هـ) حيث كان يجمع إليه شتات الشعراء في البلاط ليحضرُوا مجلسه ليلة الاحتفال بالمولد النبوي منشدين قصائدهم أمام حضرته يمدحون فيها المصطفى صلى الله عليه وسلم ليختتموها لاحقا بمديح السلطان وكانوا يجازون على ذلك. ومن جملة الشعراء الذين وصلتنا عنهم مولديات ابن زمرك الغرناطي (ت 796 هـ) ولسان الدين بن الخطيب (ت 768 هـ) وعبد الله بن لسان الدين ولد (743 هـ) وغيرهم طبعا جنبا إلى جنب مع قصائد أخرى في مدح النبي صلى الله عليه وسلم صدرت عن شعراء آخرين في هذه الفترة وبعدها لكل من ابن خاتمة الأنصاري (ت 770 هـ) وأبي البركات بن الحاج البلقيني (ت 771 هـ)

وإبراهيم بن الحاج النمري (ت ما بين 780 هـ و 790 هـ) ويوسف الثالث (ت 820 هـ) وابن فركون والبسطي (ت ما بعد 840 هـ) آخر شاعر أندلسي.

وربما يتبادر إلى الذهن سبب كثرة القصائد ذات القافية الواحدة والوزن الواحد والمخمسات في مديح الرسول عليه السلام والاحتفال بمولده وإنشاد القصائد في ذلك الحفل؟

فهناك جملة من الأسباب الكثيرة المتنوعة بين ما هو سياسي والمتمثل في التهاوي للمدن الأندلسية وسقوط قلاعها في أيدي الفرنجة مع عجز أهلها عن التصدي لمختلف العمليات الاستردادية من قبل العدو فُلجأوا إلى جناب الرسول الكريم وحضرته الشريفة المباركة فعل من ليس له بد في تجاوز حالهم إلى الأفضل ووجدت عواطفهم ومشاعرهم القوية التي تعرف قدر العقيدة الإسلامية ومقام الدين ومنزلة الرسول الأمين متنفسا ومنفرجا فانداحت عن المواجهة المباشرة باستخدام الأساليب المادية إلى التعبير عن حب الرسول صلى الله عليه وسلم والاستعانة به ليدفع عنهم الضير¹.

ومنها ما هو ديني والمتمثل في طبيعة دولتي المرابطين والموحدين فقد ركزتا على هذا الجانب بعد أن حددت كل منها غايتها وهدفها من الدخول إلى بلاد الأندلس حيث كان الجهاد في سبيل الله عنوان تواجدهما هناك ومن ثم كان التيار الديني هو المنطلق. دون أن ننسى الشيوع الواسع للعلوم الدينية أيضا.

أما في دولة بني الأحمر فإن نزعة صوفية قوية سادت في القرن الثامن حيث كان الاحتفال بالمولد عندهم إرضاء لتقليد إسلامي². ولعل هذا ما جعل شعر المديح ينتشر ويستشري بصفة خاصة والشعر الديني بصفة عامة إلى جانب شعر الزهد والتصوف وبالإضافة إلى ذلك كله نجد حالة الصراع بين المسلمين والناصرى التي عاقبتهم عن زيارة

¹ محمد سعيد محمد: دراسات في الأدب الأندلسي، ص 138.

² مقدمة ديوان لسان الدين بن الخطيب، تح محمد الشريف قاهر، ص 18.

الأماكن المقدسة وقضاء فريضة الحج فكان رحيلهم إليها عبر ما ينظمونه من قصائد يعبرون فيها عن شكواهم وحنينهم وشوقهم.

والمدائح النبوية فن شعري إسلامي صيغ حبا للنبي عليه الصلاة والسلام وتركز حول الإشادة بشخصه ونبوته ومعجزاته المتعددة يقول الدكتور زكي مبارك إن المدائح النبوية من فنون الشعر التي أذاعها التصوف فهي لون من التعبير عن العواطف الدينية وباب من الأدب الرفيع لأنها لا تصدر إلا عن قلوب مفعمة بالصدق والإخلاص. أما الدكتور صادق علي حبيب وهو يتحدث عن المديح النبوي الأندلسي يرى بأنه فن يكتسب شرفه وقيمته من شرف وقيمة الممدوح... وبأنه يجسد الروح الإسلامية في أبهى صورها والقُدوة الحسنة في أحلى أوصافها والشمائل الرفيعة في أسنى معانيها والبطولة في أجمل حللها والعظمة في أسنى مراقبها.

وبالنظر إلى ما سبق وعلى اعتبار ما ذكرنا فإنني وجدت أن قصائد المديح النبوي الشريف تتوافر على موضوعات ثلاث مختلفة ونشير إلى أن هذا التقسيم قد سبقنا إليه الدارسون من قبل¹.

الموضوع الأول قصائد الشوق والحنين لزيارة تربة المصطفى صلى الله عليه وسلم حيث قبره وحيث الأماكن الطاهرة الزكية التي شهدت وقائع وأحداث الرسالة المحمدية الخالدة.

الموضوع الثاني وهو قصائد نظمت في مدح شخصه صلى الله عليه وسلم لأجل تعدد مناقبه وصفاته ومعجزاته وكيف أن الله سبحانه اصطفاه وقدمه على جميع خلقه. الموضوع الثالث فهو قصائد نظمت في مدح المولد النبوي الشريف.

ونشير إلى أن هناك فرقا بين هذه الأقسام سنلحظه أثناء الدراسة ونشير إليه في مقامه. ومن ثمة فإن ما حملنا على اعتماد هذا التقسيم والاهتداء به، دقة تصنيفه وإحاطته الشاملة لكل موضوعات هذا النوع من الشعر، أضف إلى ذلك أن هذا التصنيف

¹ ينظر، كتاب د محمد سعيد محمد: دراسات في الأدب الأندلسي، منشورات جامعة سبها ليبيا ط1 سنة 2001، ص 139.

سيسهل علينا عملية البحث والتحليل أكثر ويحدد طبيعة كل موضوع وما له من خصوصيات ومظاهر تجعله يتفرد عن غيره من الموضوعات، فارتأيت بعد ذلك أن أتناول هذه الموضوعات بطرق كل واحد منها على حدة وتحليل ما وصلنا من شعراء بني النصر فيه مقتصرًا على نموذج أو اثنين لكل شاعر على اعتبار كثرتهم وتشابه مادتهم الشعرية في المحتوى.

قصائد الشوق والحنين:

لقد كان بعد المسافة بين الأندلس والأراضي المقدسة من أهم العوامل التي أنتجت لنا هذا النوع من القصائد فمسلمو الأندلس ومن بينهم الشعراء لم تسمح لهم ظروفهم المادية والصحية بالحج والاعتماد لزيارة العتبات المقدسة على شدة شوقهم إليها لقد كانت نفوسهم تهفو لرحلة العمر هذه حيث مهبط الوحي وحيث الثرى الطاهر الزكي الذي مشى عليه خير خلق الله والصفوة المرموقة من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين فما كان منهم إلا أن عبروا عن هذا الشوق وهذا الحنين بقصائد عصماء أصبغوها بحنينهم إلى تلك البقاع وصوروا من خلالها شدة الشوق العارم فكانت قصائد تطفح بالمشاعر المتدفقة والتي بللوها بالدموع الحازة وبالزفرات والتأوهات حسرة وألما لأن القدر لم يكتب لهم الظفر بها. ويناشدون من خلالها المولى سبحانه أن يوفقهم إليها. وفي هذا المقام يقول الدكتور زكي مبارك وكان أهل الأندلس من أرق الناس شوقًا إلى زيارة الرسول صلى الله عليه وسلم لأن بعد المزار غزا قلوبهم بأقباس الحنين¹ إذا إنه الحنين إلى حى الحجاز عبر البرق والريح والنسيم وركب الحجيج وإنه الألم المضني الذي يستبد بهم لتخلفهم عن زيارتها فيضمنون أشعارهم ذكرا لفضائل النبي وتعدادا لمعجزاته وسردا لاصطفائه ومكانته خاتمين إياها بالصلاة والتسليم عليه راجين شفاعته يوم الحساب ومقدمين أحر الاعتذارات لتأخرهم في زيارة هذه الحى بائين فيها أمانهم في بلوغها وحسراتهم لعدم تحققها.

¹ زكي مبارك: التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، ج 1، ص 281.

ونبدأ هنا بنص الشاعر ابن الأبار القضاعي (595هـ-658هـ) في الشوق والحنين إلى الأماكن المقدسة والذي يقول فيه:

لو عَنَّ لي عون من المقدار * لهجرت للدار الكريمة داري.
وحللت أطيب طينة من طيبة * جارا لمن أوصى بحفظ الجار.
وركعت في صحن هنالك طاهر * وكرعت في معن هنالك جاري.
حيث استنار الحق للأبصار * لما استثار حفاظ الأنصار.
لكن علي لها أداء الفرض من * طول النزاع وشدة التذكار¹.

فأمنية الشاعر هجر دياره التي يعيش بها ليبدلها بخير البقاع -طيبة- ليكون مجاورا للحبيب عليه السلام وإذا كان على مقربة منه فإن زيارته له تكثر والصلاة في مقامه تزداد وقراءة السلام عليه كل يوم عند قبره من أجل الأعمال التي يتقرب بها الشاعر إلى ربه سبحانه إنه معين ثر ينهل منه الشاعر كثيرا خلال كل ذلك من الصلوات والدعوات ولكن لو تحققت هذهمنية فالشاعر يرى أن هذه الأمنية بعيدة التحقق وذلك ما يبعث على الحزن والأسى والحسرة بل إن هذا الأمر يقض مضجعه ويشغل باله فيرى أن من حظي بهذه الزيارة المباركة هو أسعد الناس وأكثرهم حظا فتراه يوصيهم بأن يبلغوا سلامه رسول الله وأن يطلبوا له الشفاعة عنده فيقول:

يا زائرين القبر قبر محمد * بشرى لكم بالسبق في الزوار.
أوضعتم لنجاتكم فوضعتم * ما أدكم من فادح الأوزار.
فوزوا بسبقكم وفوهوا بالذي * حملتكم شوقا إلى المختار.
أدوا السلام سلمتم وبرده * أرجو الإجازة من ورود النار.
ثم اشفعوا لي فالشفاعة عنده * فيها أيوء رتبة الأبرار².

¹ ابن الأبار القضاعي: الديوان، ص 444.

² المصدر نفسه، ص 445.

فخطاب الشاعر يتضمن معاني الحسرة والأسى لعدم القدرة على الوصول إلى ما يريد ولكن ذلك لم يمنع من بعث السلام وطلب الشفاعة والمغفرة من موكب الحجيج القاصدين إلى هناك.

أما الشاعر علي بن محمد بن حسن الأنصاري (663هـ) فلقد تأجج الشوق والحنين في نفسه إلى الأماكن المقدسة وزيارة لحده صلى الله عليه وسلم فظهر ذلك جليا في حجازياته وهذه قصيدة مطلعها الشوق والحنين إلى عدد من الأماكن يقول:

كيف لا أندب عهدا بالحمى * عن جفوني طارق النوم حمى.
نزعنا شوقا إليه مهجة * لم يدع منها الهوى غير ذما.
يا ليالينا بذى الغور أما * يتسلى القلب عنكن أما.
وعهودا باللوى قد سلفت * لم أزل أبكي عليهن دما.

ما يلاحظ أن الشاعر قد ابتعد عن التشبيب بصاحبته وذكر محاسنها ومفاتها وهذه إشارة تفتن لها شعراء ذلك الزمن فما كانوا يجرؤون وهم يتكلمون عن المصطفى عليه السلام أن يضمّنوا أشعارهم مثل تلك المعاني والدلالات فذلك لم يكن محببا لديهم في مثل هذا المديح وهذا الجانب فيه وعي كبير من قبل الشعراء فإذا ما كانت مقدمات المدائح النبوية في الغزل فإنه يتعين على الناظم أن يحتشم فيه ويتأدب ويتضاءل ويتشبيب بذكر سلع ورامة وسفح العقيق والعذيب والغوير ولعلع وأكناف حجر وي طرح ذكر محاسن المرد والتغزل من ثقل الردف ودقة الخصر وبياض الساق وحمرة الخد وخضرة العذار وما أشبه ذلك¹.

فبعد أن ذكر الشاعر في الأبيات السابقة جملة من الأماكن الحمى الغور اللوى نراه ينتقل مباشرة إلى مخاطبة ركب الحجيج الذين كتب لهم أن يكونوا من أهل الزيارة فيقول:

يا حداة العيس رفقا إنها * شكت الجهد وبعد المرتى.
فهي تستنشق هبات الصبا * كلما وافت بنجد علما.

¹ ابن حجة الحموي: خزنة الأدب، ص 11.

أنسوها بالتتذاذ إنها * نعم تفهم تلك النعما.
طاويات لم يدع منها السرى * ودخيل الشوق إلا الأعظما.
أوهن الوخذ قواهن فإن * لاح نجد خلت فيها للمما.
مدت الأعناق لما رملت * بنقا الرمل وأكتاف الحى.
هاديات بالهوادي كلما * ضل حاد جاذبته الخطما.
جنبوها مورد الماء فقد * حرمته أو تزور الحرما.¹
يا خليلي رويدا إنها * لتعاني الشوق مثلي فاعلما.
انشقاها نفحة نجدية * راحة المشتاق أن ينتسما.

فالشاعر يرسم لنا صورة ناصعة جميلة لقافلة الحجيج القاصدة إلى الأماكن المقدسة وكيف أنها تكابد عناء ومشقة كبيرين أثناء الرحلة وسط هجير البیداء وشدة الظمإ و رغم كل الصعوبات والمخاطر فإنك تنسى ذلك التعب وتلك المشقة والقساوة ذلك أنهم في رحلة شوق تصلهم بنجد وطيبة في رحلة سوف تسمح لأعينهم بأن تكتحل برؤية قبر المصطفى عليه الصلاة والسلام وتسمح أيضا لأرواحهم أن تعيش نفحات إيمانية طيبة كلها خشوع ورهبة وبكاء فوق ثرى خير البقاع وبالتالي فالشاعر هو الآخر يعاني عذابا نفسيا بل ويحترق شوقا لزيارة هذه الأماكن ولكن الظروف كانت أقوى وأنكى وحالت دون تحقيق الهدف فما حيلة الشاعر؟ ولعل صورة الشوق العارم تتضح أكثر فيما يلي من الأبيات حين يقول:

حسرتا إن لم أكن في سلکهم * وبهم —تشتملا منتظما.
من عذيري من زمان قد مضى * أقرع السن عليه ندما.
حسرتا إن لم أبلغ أملي * قبل أن يأتي الردى مخترما.²

¹ الذيل والتكملة 5/1، ص249.

² المصدر السابق، ج 5/1، ص295.

فالحسرة تملأ قلب الشاعر على زمان قد مضى وانقضى وعلى نفس قعدت ولم تتمكن من زيارة المصطفى وتكبر الحسرة أكثر حين يحس الشاعر بعدم تحقق الأمل مع اقتراب الأجل والخوف كل خوف أن يرحل من هذه الدنيا دون أن يفوز برحلة العمر ودون أن تطأ قدماه موطئاً من الأماكن المقدسة ومن أجل ذلك نلمحه وهو يتضرع إلى الخالق سبحانه ليغفر له الذنوب والخطايا:

يا جميل اللطف واغفر زلتي * وأقلني عثراتي منعماً.
برح الفقر إلى رحماك بي * لا يداوي الفقر إلا الكرماء.
إن يكن ذنبي عظيماً قد غدا * عفوك الواسع منه أعظماً.
أثقلت ظهري ذنوب صحت من * تحتها وأسفاً وألماً.
قرع الباب بها مسترحم * لا يكن بابك عنه مهيماً.¹

فما نلاحظه في هذه الأبيات وإلى عند هذا الحد أن الشاعر يغمر قصيدته بالندب فهو يندب نفسه التي كساها الحزن ولفها الأسى وأحاطت بها سحب القنوط على ما فرط في جنب الله وإذا لم تحصل مغفرة وعفو من الله سبحانه فذاك هو الخسران المبين فالشقي بنظر الشاعر هو الذي لم يتغمده الله برحمته ولذلك فالأبيات موجهة إلى الله سبحانه طلباً للمغفرة والرضوان.

والشاعر يعتقد جازماً أن دعاءه هذا لله يجب أن يرتبط بحبل وثيق اسمه شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم ولذلك فهو لم يغفل عن هذا الأمر حيث نراه فيما تبقى من الأبيات يتوجه بها للتشفع برسوله فيقول:

إن حسبي في غد أن أغتدي * لائذا بالمصطفى محترماً.
بشفيع المذنبين المرتجى * في غد يشفع فيهم كرماً.
النبي الأبطحي المجتبي * سيد الخلق الكريم المنتمى.
الرسول الساطع النور الذي * قد جلا نور هداه الظلماً.

¹ نفسه ج 5/1، ص 295.

المكين المعتلي السامي إلى * قاب قوسين أو أدنى مكرما.
خير خلق الله طرا سادهم * لغلاء عرباً أو عجماً.
فعليه صلوات الله ما * شدت الورق فشافت مغرماً.¹

أما حجازية الشاعر أبي الحسن الرعيني (ت 666هـ) والتي نظمها أيضاً في الشوق إلى الأماكن المقدسة فإنها لا تقل في قيمتها الفنية والأدبية عن سابقتها حيث كانت موضوعاتها حول مدار الحنين والشوق إلى البيت العتيق وطيبة ووادي العقيق كما ضمنها جملة من التمنيات أملاً منه في أن يحظى بوصول رسول الله صلى الله عليه وسلم وتطأ قدمه ثرى زكيا طاهراً مشت عليه أقدام طاهرة زكية ليختمها بالسلام على البيت الحرام وطيبة فيقول:

حنيني إلى البيت العتيق شديد * وشوقي إلى وادي العقيق يزيد.
فيا ليت شعري هل يباح إليهما * وصول فيحظى بالوصول عميد.
ومن لي إلى أن أدعى إلى حرمي * وهل لي على تلك البقاع وفود.
وهل لي نافع لي ماء زمزم غلة * لها بين أحناء الضلوع وقود.
وهل أنثني نحو الرسول لطيبة * فيدنو لقلبي من مناه بعيد.
وألصق خدي من ضريح محمد * بحيث تلاقى في ثراه خدود.
فمالي لا أسعى إليها مبادراً * بقية عمر تنقضي وتبيد.
تحت ركابي نحوها عزمة أمر * بمحياء في ذات الإله وجود.
يهم فيلقي بين عينه عزمة * ويمضي مضاء السهم حيث يريد.
فأقضي دماء النفس في عرصاتها * غريباً لديها والغريب شهيد.
وإنّ امرأ يقضي فريضة حجّه * وزورة قبر المصطفى لسعيد.
وقد فاز بالحسن ونال زيادة * سعيد يواريه هناك صعيد.
سلام على البيت الحرام وطيبة * يكرّ على ربيعهما ويعود.
سلام محبّ كلّما ذكر أرضها * تبادرت الأجفان منه تجود.¹

¹ الذيل والتكملة، ج 5/1، ص 295-296.

فخطاب الشاعر يطفح بالأمني التي لا حد لها، يقدمها لنا الشاعر بنبرة من الأسى والحزن المضي، بمرارة من الألم، وذلك بسبب عدم شدّ الرّحال، والعزم للقيام برحلة العمر فيقضي فريضة الحجّ، حتى يكتب له الفوز والفلاح في الدارين، وتحقق بذلك أعظم أمنية لديه فيحظى بزيارة قبر المصطفى فيتشفع به ويلثم ضريحه، وتسكب حينها الأجفان ما شاء الله لها من الدموع حسرة وأسفا وتوبة وخشوعا وطاعة، ليصل إلى التحية الزكية الطيبة للبيت العتيق والمدينة المنورة، لتبقى صورة كليهما مرسومة في الذاكرة أبد الأبدين.

والشاعر إذ يعيش ويحيا هذه المشاعر المتدفقة الصادقة والمليئة بالشوق والحنين، فإنه نظم هذه الأبيات في مرحلة جدّ عصبية من مراحل الدولة الإسلامية في بلاد الأندلس، حيث كانت ترزح تحت وطأة القلق والخوف جراء الصراعات الداخلية التي كانت تعصف بها وجزء تكالب الأعداء عليها واقتطاعهم لحصونها تباعا، فهذا الحنين والشوق ربما كان نابعا من افتقاد الشاعر للأمن ولللاطمئنان والذي أصبح يتوق إليه في بلاد بعيدة عن بلاده.

أما الصّورة عند الشاعر . حازم القرطاجني (608 هـ-684 هـ) في الشوق والحنين، فإنها لا تقل أهمية وقيمة عما سبقها من القصائد، فهي تحمل في طياتها وثناياها المضامين نفسها، من شوق وحنين إلى الأماكن المقدّسة، وتمنيات كبيرة لزيارة قبر المصطفى عليه السّلام، هذا ويبقى التشفّع به عليه السلام من أفضل الأعمال طمعا في رضا المولى ومغفرته سبحانه.

يقول في إحدى قصائده:

قف بين قبر محمد والمنبر * وقل السّلام على السّراج الأنور.
الثم ثرى قبر النبيّ محمّد * وبذلك العفر الأسرة عفر.
واستنش طيب نسيمه و انعم به * واجعله خير ذخيرة المحشر.
مستنزلا لجميل عفو إلهه * عن سالفات ذنوبه مستغفر.

¹ الذيل والتكملة، 5/1، ص364-365.

واستنش نسيم طيب طيبة في الصبا* واسأل نسيم الريح عنها تخبر.
وإذا نظرت إلى سنا إشرافها* فأهل شكرا للإله وكبر.
وانظر بمسجده محل سجوده* وإلى مقام قيامه فيه انظر.
وانظر لأكرم هالة قد أحقدت* أنوارها بضياء بدر مقرر.
صلى عليك الله ما صدع الدجى* بضياهه فلق الصبح المسفر.¹
فشدة الشوق البادية من خلال لثم الثرى، والوقوف على القبر لإلقاء التحية
والسلام، ثم النظر إلى محل سجوده وقيامه، والتمتع بعد ذلك كله بنسيم طيبة التي طيها
ذكره وحلوله بها صلى الله عليه وسلم، لتبقى الغاية بالنهاية واحدة هي الفوز بعفو الإله عن
سالفات الذنوب المقترفة في هذه الحياة وما محمد عليه السلام. إلا وسيلة للشفاة الكبرى
التي يختزنها لأمته يوم القيامة.

(i)

وضمن هذا السياق يأتي الشاعر لسان الدين بن الخطيب . الذي ضرب بكف
عريضة في هذا الفن الشعري فهو من الشعراء الذين شغلهم السياسة والكتابة والحرب
عن زيارة الأماكن المقدسة، فكان كثير التفجع والتألم لبعد المزار وشدة النوى، وما وصل
إلينا من شعره يصور هذا الشوق العارم وتلك الشعلة الحارقة التي ما فتئ قلبه يتفطر لها
كلما ألح ركب حجيج ميمم شطر المسجد الحرام، وشطر الحمى المقدس دون أن يكون له
حظ معهم، ليستبد به الحزن في لحظة تتمناها كل نفس مؤمنة، وتتوق إليها العيون، فلا
يملك في هذا المقام إلا أن يحمل تحيته القمر والشمس لتلك المغاني، ويندرف الدمع مدرارا
مصحوبا بالحسرات والزفريات.

وهذه الحال . حال الشوق . نلمسها في نص المذهبة . كما سماها ابن الخطيب نفسه،
وهي القصيدة التي طالما أعجب بها.

¹ حازم القرطاجني: الديوان، ص 58.

وقد بدأها بمخاطبة رفيقيه، وخيرهما بين أن يتركاه يحث الخطى مرتحلا إلى الحجاز ليروي ظمأه منه، أو أن يطفئ نار الشوق والوجد في فؤاده، ثم تحدّث عن دمه الهتان كلما هبّت ريح الصبا حاملة من المشرق شذا الرسول الأكرم . عليه السّلام . وعن أشواقه إلى البرق الحجازي وسهده نفاذ صبره إلّا من بقيّة تخفّف عنه ما يعانيه من وجد، وعن حنينه إلى نجد وحاجز، وتكنيته بسعدى ودعد، وعن دمه الفضاخ لما يريد أن يكتمه من وجد، قال:

دعا عزماتي والمطيّة والوخدا * وإلّا فكفّا الشوق عني والوجد
ولا تصليا دمعي بتجريح مقلتي * فدمعي مقبول على القلب ما أذا
ألم ترياني كلما هبّت الصّبا * أبلّ بها من نار لوعتي الخدا
وأصبو إلى الأفق الحجازيّ كلما * أجالّت أكفّ البرق في أسها الرّندا
وما كان قبل اليوم جفني ساهرا * نعم هجر سعدى علّم المقلة السّهدا
ولمّا تفانى الصّبر إلّا صباة * تسهّل من وقع الحوادث ما اشتدا
حننت إلى العهد القديم الذي قضى * حميدا فما أغنى الحنين ولا أجدى
لي الله، كم أهذي بنجد وحاجر * وأكني بدعد في غرامي أو سعدى
وما هي إلّا زفرة هاجها الهوى * وأبدى بها تذكّار يثرب ما أبدى
وكم قد كتمت الشوق لولا مدامع * يروّي حديثها المحاجر والخدا
وتخرج من بحر الجفون جواهرها * تحاجي بها من أذكر الجوهر الفرد¹
ثم تساءل مستنكرا، هناك تعليل لنفسه بعد رحيل ركب الحجيج إلى الحجاز، وأنّى له أن يصبر إلى العام القادم.

أبعد سرى الركب الحجازي موهنا * أمدّ لنفسي في تعلّله مدا
وأرجع عمري من زماني لقابل * كأني قد أحصيت أيامه عدا²

¹ ابن الخطيب: الديوان، ص 479-480.

² ابن الخطيب: الديوان، ص 481.

ليرفع بعد ذلك صوته مناديا راجيا حداة الركب بما بينه وبينهم من مودة أن يخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم، بحاله وغربته وشوقه ورغبته بزيارته فيقول:

ألا يا حداة الركب يبغون يثريا * ويلقون في الله السامة والجهدا
بما بيننا من خلّة طاب ذكرها * إذا فرغت عوج المطي بكم نجدا
وأبصرتم نور النبوة ساطعا * قد اكتنف الترب المقدس والحدّا
وناجيتما من مطلع الوحي روضة * أعدّ لها الله السعادة والخلدا
ولا قلب إلا خافق في شغافه * ولا طرف إلا من مهابتها ارتدا
معاهد مدّ الغيم فضل رواقه * بها، وكساها من نسيجته بردا
وهبّ العليل اللدن مستشفيا بها * فكان الدواء البان والشيخ والرندا
فقولوا: رسول الله يا خير خلقه * وأكرم مختار أبان به الرّشدا
غريب بأقصى الغرب طال اشتياقه * فلولا تعلّات المنى لقضى وجدا
يؤمل نيل القرب والدّنب مبعد * وقد سدّ من طرق التخلّص ما سدّا¹

والقارئ لهذه الأبيات يدرك مدى صدق عاطفة الشاعر المشوبة والمشبعة بالروح الصوفية الهائمة بحب الرسول عليه السلام وذلك التبجيل الكبير الموجود على مستوى المعاني الموظفة في أسلوب رصين محكم، يناسب منزلة الحبيب محمّد . صلى الله عليه وسلم. القريب إلى القلب مع سموه ورفعته، فهو القريب البعيد، والبعيد القريب.

ثم نجد الشاعر في أبيات أخرى، قد استبد به الحزن بعد أن ألمح ركب الحجيج ميمما شطر الحى المقدس، ولم يكن حينها من بينهم فكان أن حملّ تحيته القمر والشمس لتلك المغاني وهو يذرف الدمع مدرارا، مصحوبا بأنات الشوق والحنين إلى تلك البقاع فيقول:

دعاك بأقصى المغربين غريب * وأنت بعد المزار قريب
يكلف قرص البدر حمل تحية * إذا ما هوى والشمس حين تغيب
فلا قول إلا أنّه توجّع * ولا حول إلا زفرة ونحيب¹

¹ ابن الخطيب: الديوان، ص 481.

أما الشاعر . ابن الصّائغ² (ت 749 هـ) فقد نظم قصيدة تطفح بمعاني الشوق ودلالات الضنى والهوى التي كانت تحرق قلبه الحانّ للحمى المقدّسة، وكان بعد المزار يعذبه ويجعله دائم البكاء، فتراه يطلب من الركب أن يعوجوا على خير الحمى فيقول:

بعد المزار ولوعة المشتاق * حكما بفيض مدامع الأماق
وخفوق نجديّ النّسيم إذا سرى * أذكى لهيب فؤادي الخفّاق
أمعّلي أنّ التّواصل في غد * من ذا الذي بغد فديتك باق
إنّ اللّيلالي سبق إن أقبلت * إذا تولّت لم تنل بلحقاق
عج بالمطّيّ على الحمى سقي الحمى * صوب الغمام الواكف الرّقراق
فيه لذى القلب السّليم وداده * لا كان في الأيام يوم فراق
يا ساريا واللّيل ساج عاكف * يفري الفلا بنجائب ونياق
عرّج على مثنوى النّبي محمّد * خير البريّة ذي المحلّ الرّاق
ورسول ربّ العالمين ومن له * حفظ العهود وصحّة الميثاق
الظّاهر الآيات قام دليلها * والظّاهر الأخلاق والأعراق

ثم يجعل حبه للنبي عليه السّلام وسيلة وذخيرة قد تكون بديلة عن الأعمال الصّالحات التي لم يوفق الشاعر إلى القيام بها، فهو الآن يشد الرّواحل ضمّرا بمعية النجائب التي تقودها أزمة الأشواق، قصد الوصول لفناء المصطفى عليه السّلام، ليطلب منه الشفاعة المرتجاة يوم القيامة، وليلقي عليه تحية زكية مباركة تليق بصاحب المقام الأعظم فيقول:

يا ذا الذّي اتّصل الرّجاء بحبله * وانبتّ من هذا الوري بطلاق
حبّي إليك وسيلة وذخيرتي * إنّي من الأعمال ذو إملاق
واليك أعملت الرّواحل ضمّرا * تختال بين الوخد والأعناق

¹ لسان الدين بن الخطيب: الديوان، ص 320.

² ابن الصّائغ

نجبا إذا نشرت حلى تلك العلا * تطوي الفلا ممتدة الأعناق
تحدو لهنّ من النّحيب تردّد * وتقودهن أزمنة الأشواق
فأنختها بفنائك الرّحّب الدّي * وسع الوري بالنّائل الدّفّاق
وقرى مؤمّلك الشّفاعاة في غد * وكفى بها هبة من الرّزاق
وعليك يا خير الأنام تحيّة * تحيي النّفوس بنشرها الفتّاق
تتأنّج الأرجاء من نفحاتها * أرح النّدي بمدحك المصداق¹

إنه لمن الطبيعي أن يصور أهل غرناطة فرحتهم العارمة إذا ما اكتحلت جفونهم برؤية مزار الحبيب . صلى الله عليه وسلم . والأماكن المقدّسة الطاهرة، فهذا ابن الخطيب في الإحاطة، يروي لنا نقلا من كتاب . ملء العيبة فيما جمع بطول الغيبة . لصاحبه ابن رشيد، خبر زيارة أبي عبد الله بن الحكيم للرسول صلى الله عليه وسلم، وفرحه بهذه الزيارة التي شفّته بعد أن كان أرمدا، يقول ابن رشيد: لما قدمنا المدينة سنة (684هـ)، كان معي رفيقي الوزير أبو عبد الله بن أبي القاسم بن الحكيم وكان أرمدا، فلما دخلنا ذا الحليفة . أو نحوها نزلنا عن الأكوار، وقوي الشوق لقرب المزار فنزل وبادر إلى المشي على قدميه احتسابا لتلك الآثار، واعظ . إما لمن حلّ في تلك الديار فأحسّ بالشّفاء، فأنشد لنفسه في وصف حال قوله:

ولمّا رأينا من ربوع حبيبنا * بيثرب أعلاما أثرن لنا الحبّا
وبالّرب منها إذ كحلنا جفوننا * شفيينا فلا بأسا نخاف ولا كربا
وحين تبدّى للعيون جمالها * ومن بعدها عنّا أدليت لنا قربا
نزلنا من الأكوار نمشي كرامة * لمن حلّ فيها أن نلّم به ركبا
نسجّ سجال الدّمع في عرصاتها * ونلثم من حبّ لواطئه التريا
وإنّ بقائي دونه لخسارة * لو أن كفي تملأ الشرق والغربا²

¹ لسان الدين ابن الخطيب: الكتبية الكامنة، ص88، 89، 90.

² ابن الخطيب: الإحاطة، ج 2، ص436. وينظر المقرئ: النفخ، ج2، ص623.

وغير بعيد عن هذا نجد الشاعر "البلوي"¹ صاحب الرحلة الحجازية المسماة . تاج المفرق في تحلية علماء المشرق . يصف فرحته التي لا توصف عندما وصل المدينة، وحلّ ضيفا على حبيب الله . صلى الله عليه وسلم . فلم يملك حينها إلا أن ارتجل قائلا:

الله أكبر حبّذا إكباره * لاح الهدى وبدت لنا أنواره
لاحت معالم يثرب وربوعها * مثنوى الرسول وداره وقراره
هذا النّخيل وطيبة ومحمّد * خير الورى طرّا وها أنا جاره
هذا المصلّى والبقيع وها هنا * جبريل ردّد بينها تكراره
هذي مواضع مهبط الوحي الذي * تشفي الصدور من العى أسطاره

فهذه بعض الأبيات من القصيدة، وبقيتها سنعرّج عليها لاحقا عند غرض المديح النبوي.

فالشاعر البلوي لم يصدّق أنه صار جارا للحبيب عليه السّلام، وراح يعتمد أسلوب الإشارة إلى مختلف المواقع وكأنّه غير مصدّق لبصره الذي وقع على هذه الآثار الزكيّة في تلك البقعة المباركة.

ثم ما يلبث أن يقدم البشرى لقلبه الذي نال ما تمّنى وما كان يهوى، مذكّرا إياه بالوصل الذي كان يأمله وقد تحقّق، لتجد الدّموع طريقها إلى الوجنتين فيطلب منها أن تقصر وقد بلغ الفؤاد ما هوى فيقول:

بشارك يا قلبي فقد نلت المنى * وبلغت ما تهوى وما تختاره
وتجلّ يا طرفي فيا لك ناظرا * أبصرت طيبة فانقضت أوطاره
قد أمكن الوصل الذي أمّلته * وكذلك حيّ أمكنت أسراره
قد كان عندي لوعة قبل اللّقا * والآن ضاعف لوعتي إبصاره

¹ البلوي: هو صاحب الرحلة التي سماها "تاج المفرق" وكنيته أبو البقاء: ترجم له في الإحاطة (ج1: 508) وينظر النفع: ج3: 285. لقي رحلته كثيرا من العلماء الذين أخذ منهم غادر بلده، ضحوة سنة 730هـ متوجّها إلى الحجاز، ولما عاد إلى الأندلس أصبح قاضيا ببلده وظلّ في القضاء زمنا طويلا: ينظر (ابن الخطيب: الكتبية، ص134).

رفقا قليلا يا دموعي أقصري * فالدمع يحسن في الهوى إقصاره
وبعدها يتساءل الشاعر معتمدا الاستفهام بحرف "الهمزة" ليضفي على قصيدته
شيئا من الرونق والجمال وهو يوظف هذه البنى الاستفهامية، ليؤكد من خلالها أن الذي
يقصد محمدا عليه السلام لن يخيب، ولن يضيع، ولن يردّ، فالذي أمّ بابه لا محالة تقال
عثاره ولن يعود صفرا خيبت أسفاره، يقول:

أيضيع من زار الحبيب وقد رأى * أنّ الممزور بباله زوّاره
أيخيب من قصد الكريم وعنده * حسن الرجاء شعاره ودثاره
أيومّ بابك مستقيل عاثر * فيردّ عنك ولا تقال عثاره
حاشا جلالك أن يؤمّله امرؤ * فيعود صفرا خيبت أسفاره¹

والصورة نفسها أو تكاد تكون، وأنت تقرأ قصيدة الشاعر القاضي أبي جعفر محمد
بن جزّي²، الذي تمّ أن تكرر خيله شطر الحمى المقدّسة، لينزل جارا على حضرة
المصطفى عليه السلام لأنّه يرى أنه الجوار الأمثل والأكمل، بل إنه المجد المؤثل كما
يسميه، حيث يقول:

ألا ليت شعري هل تقول عزائي * لـخيلي كرى كرى بعد إقبال
فـأنزل دارا للنبي نزيلها * "قليل هموم ما يبيت بأوجال"
فطوبى لنفس جاورت خير مرسل * بيثرب أدنى دارها نظر عال
فمن ذكره عند القبول تعطّرت * صبا وشمال في منازل قفال
جـوار رسول الله مجد مؤثل * "وقد يدرك المجد المؤثل أمثالي"³

¹ ابن الخطيب: الكتبة الكامنة، ص 135-136.

² ولد سنة 715 هـ، ولما كتب لسان الدين الإحاطة ما يزال حيّا تقدم قاضيا بحضرة غرناطة وخطيبا بمسجد السلطان سنة 760 هـ ثم غادرها وعاد إليها سنة 763 هـ، وقد رجع المقرئ أن تكون وفاته سنة 785 هـ ترجم لم ابن الخطيب في التاج والإحاطة ج: 1، ص 163 وج: 1، ص 48. نقلا (الكتيبة الكامنة: ص 138).

³ ابن الخطيب: الكتبة الكامنة، ص 140.

وغير بعيد عن هذا السياق، نجد الشاعر أيا القاسم بن حميد التجيبي¹ وقد حرقته لوعة الاشتياق والدمع منسكب من الأجفان، وكله حنين إلى الربوع الطاهرة المقدسة، ليظفر بوقفة على قبر المصطفى أو لثمة على ضريحه الشريف، يقول:

جـاد الغمام بصوبه الهتّان * يحكي انسكاب الدّمع من أجفاني
وحسكت بروق أبرقت بخلاله * نار الصّبابة والهوى بجفاني
وسرت على البطحاء أنفاس الصّبّا * فسرى الجوى بجوانح الهيمان
مه يا نسيم فقد أذبت حشاشتي * وفصمت عن قلبي عرى السلوان
وأرقت من جفني وهجت بأضلعي * ما شئت من ماء ومن نيران
يا صاح إن جئت الخيام بيثرب * وثويت من ذاك الحمى بمكان
وسرّيت في تلك الأجارع والرّبي * وجررت في واديه فضل عنان
فـانـشر لواء محبّتي بفنائـه * و افـضـض هناك خواتم الكتـمان
واشرح قضيات الهوى و أقم على * صدق المحبّة واضح البرهان
و افـتـق بأربعـه تحية مسكة * عـنـن ذي اغتراب نازح الأوطان
والثـم بطيبة قبر من حبست له * شـمـس النهار وخصّ بالفرقان²

أما بقية أبيات القصيدة، فكانت من المدح، والمولد النبوي، لذلك ارتأيت تناولها في القسم الثاني والثالث من هذا الفصل.

المصادر والمراجع:

1. ابن الأبار القضاعي: الديوان، تح: عبد السلام الهراس، وزارة الاوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 1999.
2. ابن حجة الحموي: خزانة الأدب وغاية الأرب، تح: كوكب ذياب، دار صادر، بيروت، لبنان، 2018.

¹ سبق التعريف به، ص 95.

² بن الخطيب: الكتبة الكامنة، ص 303.

3. ابن عبد الملك الناصري المراكشي: الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 2018.
4. حازم القرطاجني: الديوان، تح: عثمان الكعاك، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1964.
5. زكي مبارك: التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، مؤسسة هنداوي، القاهرة، ط1، 2012.
6. شهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تح: إحسان عباس، ط2، دار صادر، بيروت، لبنان، 1997.
7. لسان الدين بن الخطيب: الصيب والجهام والماضي والكهف، تح: محمد الشريف قاهر، دار الشهاب، باتنة، الجزائر، 1985.
8. محمد سعيد محمد: دراسات في الأدب الأندلسي، منشورات جامعة سبها، ليبيا، ط1، سنة: 2001.
9. محمد ياسين المصباحي: المديح النبوي، مكتبة مجلس البركات، القاهرة، 2014.